"The Sufferers" of Dr. Taha Hussein -An Analytical study

Author: Dr.P Abdu Rasheed

المعذبون في الأرض للدكتور طه حسين – دراسة تحليلية

المؤلف :د\عبد الرشيد ب
الأستاذ المساعد
الكلية الحكومية برنان
تلشيري،كيرالا

الكتاب " المعذبون في الأرض"مجموعة أعمال طه حسين.و فيه ست قصص وخمس مقالات. وهذه المقالات والقصص نشرت في وقت مختلفة في منشورات متنوعة. وبعد ذلك جمعها تحت عنوان كتاب سماه المعذبون في الأرض. وفي هذه المقالات والقصص يتناول طه حسين موضوعا واحدا. وهو حياة البائسين والفقراء، كما يدل عليه اسم الكتاب.

و فيها صورة ظاهرة عن حياة الفقراء البائسين الذين يعيشون في مصر. و قد أطنب طه حسين الكلام عليها.

وأول قصة في هذا الكتاب سماه 'صالح' وفي هذه القصة يشير الكاتب إلى حبّ ورفاق بين صديقين حميمين اسمهما صالح وأمين. وصالح البطل في هذه القصة رمز الفقير والبائس. وأمين من بيت غني. وكان في بيت صالح أبوه وزوجته وأبناؤها من الزوج الأول. وقد طلّق أبوه أم صالح. وفارقها بسوء خلقها وبكثرة كلامها. وصار صالح في بيت أبيه.

وفي المرحلة الأولى يصور طه حسين بيت أمين. وكانت هذه الدار قائمة قاعدة في ذلك المساء. فقد ألم بها ضيف لهم خطر ومكانة في الإقليم[1] ص. وكانت سيدة الدار حريصة دائما على الإحتفاء بالضيف. وقالت لابنها أن ينبئها إذا سمع صوت الشيخ يرفع بالتكبيرة الأخيرة. فوافق الابن عليه.

[1] المعذبون في الأرض د/طه حسين -ص12

وذهب ابنها أمين إلى زاوية من فناء البيت وبدأ يلعب بمقطع من الحديد. وفي هذا الوقت جاء صديقه صالح إليه وقدمه طاقة من زهر الحقول إليه باسما. وكان صالح في ثوبه الممزق قد ظهر منه صدره و نابتيه. وأعطاه أمين ما بقي عنده من قطعة السكر، وأشار إليه أن يجلس ويلعب معه بقطعة الحديد. وبدآ يلعبا معا. وتكلما عن الكتاب والرفاق والحقل وأهل القرية مما جعله ينسي صلاة الشيخ والضيف والنبأ الذي كان يجب أن يحمل إلى أمه. ولا يزالان يلعبان معا حتى دعته أخته من وراء الباب للعشاء.

لما سمع صوت أخته أبطأ في الاستجابة لها لأنه لم يكن يدرى كيف يخلص من رفيقه أو لم يكن يجب أن يخلص من رفيقه[2]. وقال صالح له أن يذهب إلى عشائه. وعاد الصبي إلي أمه مع الزهرات في يده ولما سألت الأم عن الأزهار قال الصبي أنها حملها صالح إليه. وسألت الأم أن يدعاه للعشاء. وكان صالح يدبر للخروج إلى بيته ولو استطاع لأقام للعشاء، ولكنه مضى.

وانطلق الصبي طلبا لصالح. ورفع صوته بدعاء صاحبه، ولكنه لم يكرر الدعاء. وقد كان صالح قائما أمام الدار. ولما سمع صوت أمين يدعوه أجابه. وأخبر أمين أنه يريد أن يبقى للعشاء معا. وعاد صالح معه للعشاء وتعشيا وبعد أن عاد صالح إلى بيته وأمين إلى أمه راضيا. وأخبرت الأم له أن صالحا قد وصل إليه بحمل الأزهار ليتعشى. و قال الصبي لأمه أن ثوبه ممزق وأجابته أن يحمل إليه ثيابه.

وبعد ذلك كان طه يصور لنا صورة الكتاب،حيث فقد صالح ختمه. كما صور طه في القصة "فقد سمع سيدنا الضرير يسأل عريفه البصير: هل تفقدت الأختام؟ قال العريف: نعم. قال سيدنا: وهل سلمت لك كلها؟ قال العريف. نعم، إلا ختم صالح بن الحاج على فإنه قد ضاع، وما أشد حاجة هذا الفتى إلى التأديب فإنه لا يطيع أمرا ولا يسمع كلاما ويخرج من الكتاب مع العصر الا ينغمس في الماء" [3]. وهنا أضاع صالح ختمه. وأخبر به العريف سيده. وكان العريف رمز الرشوة والفساد. والطلاب يعطون العريف الرشوة ويشترون كذب العريف. لكن صالح لم يحمل الرشوة إليه. وفي الحقيقة لم يفقد ختم صالح فقط، بل كثير من الطلاب. ولكنهم كانوا يعطون الرشوة، ولذلك كتم العريف

[2] المعذبون في الأرض د/طه حسين ص: 15
[3] المعذبون في الأرض د/طه حسين ص 21،22

هذا الخبر من السيد. وكان أمين يعرف هذا الأمر مثل زملائه. وأخيرا اخبر هو سيده قائلا له "إن العريف لم يقل لك الحق كله، فليس صالح وحده هو الذي فقد ختمه. وإنما فقد الأتراب جميعا لأنهم يذهبون جميعا إلى النهر أو إلى القناة، ولكنهم يرشون العريف بما يحملون إليه من طرف، فأما صالح لم يحمل إليه شيئا" [4] وكانت النتيجة أن أديرت الفلقة على ساقي صالح وعمل السوط في رجليه حتى دميتا ثم اديرت الفلقة على ساقي أمين ومس السوط رجليه مسا خفيفا لم يدمها. وهذه معاملة السيد والعريف. وهنا علم أمينا أن الصدق والشجاعة والصراحة لا تحسن في جميع المواطن.

عاد صالح مع أمين إلى بيته، وأم أمين رأت صالحا ورحمته ورقت له وآثرت ببعض الخير، ثم أهدت إليه ثوبا من ثياب أمين. وفرح صالح جدا، ونسي الفلقة والسوط الذي مزق قدميه من السيد. وقالت له إنها تطلب من السيد أن يعفيه من الضرب في اليوم التالي. وبعد ذلك سأل أمين أمه سبب ضربه ضربا عنيفا و ضربه ضربا رفيقا. وأجابت أن ذنب رفيقه ذنب عظيم وذنبه يسير.

وانصرف الصبي منه فرحانا، ولكن هذا الثوب صار مصدر شقاء عظيم له. خرج صالح بثوبه الجديد مسرورا وانغمس في القناة وامتلأ في نفسه رضا وامتلأ في قلبه سعادة. ثم دخل في ثوبه الجديد وعاد إلى بيته مع الغروب ولما رأته امرأة أبيه وهو في ثوب جديد نظرت إلى ثوب ابنها وابنتها ورأت أنهما ثوبين باليين قديمين. وأحست في نفسها أن هذا الثوب الجديد لم يخلق لصالح وإنما حلق لإبنها محمود وفي الغد ضرب الأب صالحا ضربا مبرحا. وصار مريضا وجرد من ثوبه الجميل ورد إلى ثوبه القديم. وأعطى ثوبه الجديد ابن زوجتها وعجز صالح أن يذهب إلى الكتاب من غده.

ولما كانا يرجعان من الكتاب رأيا جماعة مزدحمة تتصايح وتدعو بعضها بعضا ورأيا منظرا شنيعا حزينا، هناك جثة قد شطرت شطرين في سكة الحديد. وعندها مرأة قائمة تلطم وجهها وتضرب صدرها وتسفح دمعها وتنشر في الفضاء ضحكا عريضا. وكانت الجثة جثة أخيه سعيد اكلها القطار. والإمرأة التي تبكى قريبها أمه خديجة ويدفعها جنونها إلى الضحك. وهمّ صالح أن يقف هناك ولكنه آثر أن يمضى مع رفيقه

[4] المعذبون في الأرض د/طه حسين ص. 23

أمين كأنه لم ير شيئا. وفي الليل راح أبو أمين إلى بيته وقال محزونا لقد كانت القطار شرهة منذ ذلك اليوم لأنه أكل أحدها سعيدا مع الظهر وأكل الآخر صالحا مع الليل. وفقدت خديجة ابنيها في يوم واحد. وهناك رأي أبو أمين ابنه يكاد يتفجر من البكاء، فمسح على رأسه وقبّله. وقال أمين بعد أن صار رجلا أنه يرى كل وقت تلك الجثة قد ألقى عليها ثوب غليظ في نفسه، ولكن لم ير وجه سعيد هناك ويرى كل وقت وجه رفيقه صالح.

والقصة الثانية في هذا الكتاب بعنوان "قاسم". وكان قاسم صياد السمك. وهو فقير بائس. وفي أول النهار كان يذهب إلى النهر للصيد. وكان لا يلتفت إلى اليمين ولا إلى الشمال. و يسعى سعيا مستأنيا رفيقا. لا تعجل شيئا ولا يقف عند شيء. وكان يذكر في نفسه ذلك الوقت قول أخيه الشيخ الضرير "انك تسعى في ظلمة الليل فتطيل السعى وتمتد بك الطريق مخوفة غير آمنة، فاحفظ هذه الآية من القرآن ورددها في قلبك أو بلسانك، فإنها تؤمن من خوف وتؤنسك من وحشة، ثم اقرأ الآية الكريمة "الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب"[5]. وفي كل وقت قبل خروجه إلى النهر كان يذكر هذه الآية في نفسه. وبعد صلاة الفجر سعى إلى النهر هادئا دون أن يتكلم أحدا. وكانت في بيته زوجته امونة وابنته سكينة. وهذا الرجل البائس صار مريضا. ولم يستطع أن يروح إلى النهر كل يوم. ولذا صارت أسرته في الجوع والعطش. وبعض الأيام كانت أمونة تخرج من بيتها الحقير وتخدم فى بيوت الأغنياء. وتعود حين ينتصف النهار حاملة طعاما لأسرتها.

وفي يوم من الأيام خرج قاسم إلى النهر وخرجت شبكته له بسمكة عظيمة لم يكن يحس ثقلها ولم يكد يرى طولها وعرضها حتى اضطرب في قلبه فرح ضئيل. وكان يحمل هذه السمكة إلى بيت العمدة ووصل قاسم مع غلام وطرق طرقا خفيفا على باب العمدة. وسمعت هذا الصوت فتاة من فتيات الدار. وكانت تكنس فناء الدار وتهيّئ مجلس سيدنا حين يقبل مطلع الشمس ليقرأ السورة ويشرب القهوة. وفتحت الباب ورأت قاسما حزينا تظهر على وجهه الشاحب آية الرضا والأمل ومن ورائه غلام يحمل عنه عبئه. دخل

[5] المعذبون في الأرض د/طه حسين ص 34

الرجلان صامتين ووضعا صيدهما العظيم على الدكة في صدر الفناء. وفي هذا الوقت جاء الشيخ الضرير لقراءة القرآن، وجلس على كرسي وأبى أن يقرأ السورة حتى يشرب قهوة قبل القراءة. وقال للفتاة أن تنبئ السيدة بأن السمكة قد ملأت قلبه وينتظر نصيبه حين يتقدم النهار. وانصرف الشيخ مستبشرا لأن الله أعطى رزقا حسنا دون أن يسعى إليه. وختم طه هذه الفقر قائل "والله يرزق من يشاء بغير حساب".[6] وأعطى صاحب الدار قاسما قروشا.

ثم يرجع الكاتب إلى بيت قاسم، هناك نرى أمونة وابنتها سكينة. وتسألها الأم لها عن غيابها عن البيت بعد ذهاب قاسم إلى النهر. وهنا بدء الجدال بين الأم والابنة. وأخيرا أخبرت سكينة أمها أنها لقيت زوج عمتها من مزرعته. وهناك يشرح الكاتب أن بينها وبينه علاقة منكرة. وكان قاسيا على أخ امرأته، ولا يمد إليه يدا بالمعونة ولا يظهر اشفاقا عليه. ولكنه رأى ابنته فتاة كاعبا تستقبل الحياة في قوة وجمال. واشتهى جمالها وطمح في محاسنها. ومال قلبه إلى هذه الفتاة. وبعد ذلك كان يسعى بين حين وحين إلى هذه الأسرة البائسة بالخير. وكان قاسم وامرأته يراقبان هذا الودّ الجديد في تردد وشك. ولكن لم تستطع الأسرة أن تمنع هذا الودّ لأن الحاجة كانت أقوى من التحذير. وأكثرت سكينة زيارة دار عمتها. ثم قويت المودة بينهما.

ورجع قاسم من السوق بعد بيع الامتعة إلى بيته. ووصل إلى البيت ودفع الباب الدقيق. ولما فتح الباب جعل الدم يتصاعد إلى وجهه. وجعلت عيناه تبرقان وشفتاه تنفجران. ورأى أن زوجه تساقط دموعها وابنتها تنتحبّ وامرأته قصت عليه كل ما جرى في صوت مختنق. وصار حزينا جدا. وقال: "لو رزقنا الله مكانها غلاما لم نتعرض لهذا الخزي"[7] ولم ير الجيران امونة وقاسما وابنتهما ذلك اليوم. وكذلك لم يروا دخان الطبخ تخرج من ذلك البيت. وفي الصباح التالي خرج قاسم إلى النهر ولم تخطر له آية القرآن التي قال له أخوه الضرير. ولم يشعر في الوقت بخوف. وكان يذهب إلى النهر عابرا المسجد ونزل في النهر. وانتظرت أمونة مع ابنتها أن يعود إليها قاسم ولكنه لم يعد قط.

[6] المعذبون في الأرض د/طه حسين ص. 38
[7] المعذبون في الأرض د/طه حسين ص. 47

وفي القصة الثالثة المعنونة "خديجة"، كان يشرح لنا قصة خديجة. وهي امرأة جميلة ابنة رجل في وجهه جهم غليظ بسبب البؤس والشقاء وابنة مرأة ووجهها صورة رائعة للقبح. وكان صوت خديجة عذبا صافيا ممتلئا. وكانت أمها محبوبة خادمة، وهي تطوف بأهل القرية تصنع لهم خبزا خاصا. وكانت خديجة تعمل في دار من دور اليسار. وكانت راضية في هذه الحياة. وإن كانت تفكر في بؤس أبويها وأخوتها الصغار. وكانت ربّة الدار محبة لها.

و ذات يوم سمعت ربة الدار في فناء دارها صوت امرأة كانت تصيح. ومعه بكاء فتاة. وصوت ضرب عصا يصب على جسم الفتاة. ولما سمعت هذه الأصوات فتحت ربة الدار الباب ورأت محبوبة وابنتها خديجة. وفهمت من أمها أنها سرقت طبقتين ووجدتها الأم في بيتها الحقير. ولكن أخبرت ربة الدار أنها لم تسرقهما ، وهما طبقتان أعطتهما هى لتحمل الطعام إلى أسرتها. وأخبرت سكينة أنها تركت الطعام لأنها تستحيي أن تحمل ذلك الطعام إلى أهلها. وحملت طبقتين فقط إلى بيتها.

منذ ذلك اليوم عرفت ربة الدار أن خديجة خادم لا كالخدم، فآثرتها بالمودة والحب، وتتخذها صديقا. وفتيان القرية يتسامعون قصتها ويتحدثون عن جمال خديجة ويسرون في قلوبهم حبا لها وطمعا فيها. وذات يوم يتقدم الخاطب، فتى قوي موفور الصحة، عظيم النشاط جميل المنظر. و استقامت الأمور بين الأسرتين، ولكنها لم تستقم في نفس خديجة. فهي تمتنع على هذا الزواج. وكانت تحب أن تكون خادمة ولكن عزم والديها على ذلك الزواج وعقد الزواج بينها وبين سعيد.

ولما انطلق الفجر ذات يوم بعد الزواج ذهبت خديجة إلى النهر وغرقت فيها. ولم يظفر الباحثون على جثتها. فقالت سيّدتها: "اكرهت خديجة اكراها على الزواج، ومس حياءها النقي ونفسها الطاهرة منه دنس، لم يستطع الحب أن يغسله فغسله الموت.[8]

وكان لطه حسين إيمانه بالقدر والقضاء. ودليل هذا في كتابه المعذبون في الأرض حيث يقول: أن ترف المترفين إنما يأتيهم بحكم القضاء المكتوب والقدر المحتوم. وليس من سبيل إلى تغيير القضاء، أو تبديل القدر، أو الغاء سنة الله في الناس. فالله قد خلق

[8] المعذبون في الأرض د/طه حسين ص. 91

الناس على ما نراهم من هذه الفرقة فيما بينهم، يترف بينهم فيما يطغيه الترف وينعم حتى يبطره النعيم. ويحرم بعضهم حتى يضيق به الحرمان، ويشقى حتى يمجه الشقاء[9].

في قصة 'المعتزلة' يقول الكاتب لنا قصة أسرة بائسة مصرية، وكانت هذه الأسرة تتضمن أربعة أشخاص. تمام وأبو ا لعلاء وسعدي وأمهم. وكانت أم تمام تجولت في المدن والقرى شهرا أو أشهرا أو أسبوعا أو أسابيع أو يوما أو أياما. وأخيرا وصلت هذه الأسرة إلى تلك القرية واقامت فيها وأطالت المقام. وكانت دارها الحقيرة تقع بين دارين ضخمتين فخمتين.

وكان يحاول تمام أن يكون بناء، ويحمل أخوه الطين والماء وغيرهما من أدوات البناء. وكانت سعدي بنتا في الثانية عشرة أو الثالثة عشرة من عمرها. وكانت الأم تتلقط من الطريق روثة البقر والجاموس تقطعه قطعا متقاربة. وتجففه على سقف بيتها وتتخذ منه وقودا لتطبخ. وكانت تبيعها لبعض نساء في القرية بالقروش لمعيشتهم.وحدث فى أثناء ذلك أن انتشر الوباء فاختطف ابنيها في أقل من خمسة أيام. و تمنت الأم أن يختطفها هي والابنة،فلا يشقيان فى الحياة. ولكن لم يختطفهما الوباء. و صارت حياتهم ضيقة جدا. ولم تتكلم الأم بعد ذلك وهي تبكي كل وقت.

ذات يوم خرجت مع ابنتها من البيت قبل أن يرتفع الضحى. وقال الناس إنها ملت البطالة حتى خرجت من بيتها . ولكن رأى الفلاحون أنها غرقت نفسها في القناة الإبراهيمية مع ابنتها. وأسرعوا إلى إنقاذهما. ولكن ماتت الأم وسلمت ابنتها وصارت بلهاء، وبعد ذلك لا تستقر في مكان، وهي متنقلة بين القرى، ويوما رأى الناس سعدي البلهاء تسعى وبطنها يسعى بين يديها، "قد عبث بها غول من أغوال الطريق فوضع في أحشائها جنينا"[10]. وهنا ختم الكاتب القصة. وبعد رجوعه إلى مصر بعد خمسة وأربعين عاما، رأى الوباء رابضا علي مصر. وفهم الكاتب أن شئون مصر قد تغيرت. وأن حياة مصر قد صلحت، ولكن لم يمنع الوباء من أن يجدد عهده بزيارة مصر. ويوجد في مصر أسرة معتزلة كأسرة أم تمام حتى الآن.

[9] المعذبون في الأرض د/طه حسين.. ص: 62
[10] المعذبون في الأرض د/طه حسين 75

وقصة 'رفيق'، تصور العلاقة بين الرفيقين. وفي يوم من الأيام جاء رجل ضابط تركي ذو ثروة وارتفاع المنزلة ولباس أنيق مع صبيين إلى الكتاب ليلتحقهما فيه. واسمها عثمان ومحمد. وعثمان فقد بصره إلا قليلا – وهبه أبوه للأزهر – وأما الثاني محمود عفريت في بيته. وكان في الكتاب صبي، لم ينطلق مع التلاميذ ليصيب غداءه. لأنه كان يحمل غدائه إلى الكتاب. ولذلك سمع كلام سيد الكتاب والعريف وحديث ذلك الرجل تماما. وفي المساء يسعى إلى أمه ليخبرها. وفي اليوم التالي تعرف الصبي زميليه. وكان سيّد الكتاب يتكلفه لقراءة القرآن على عثمان وتحفيظه إياه. و صار الصبي معلما ومقرئا عليه. وكان يذهب إلى بيت عثمان غالبا. وكان بيته أنيقا مترفا، ويملأ قلبه حين يدخله روعة وكبرا. وكان في بيته أبوه وأمه وأختاه. وكان الصبي يحفظ عثمان القرآن ويشاركه في اللعب. ومحمود يتحول من الكتاب إلى المدرسة المدينة. ولكن السأم يسعى بين الرفيقين، وبدأ الصبي ينصرف عنه قليلا قليلا ويرفق آخرين من أهل المدينة، ويعرضون عليه فنونا جديدة من اللعب وكان الصبي يلقى رفيقه المترف في داره حينا وفي دار الصبي حينا آخر. وذات يوم سمع خبرا من أبويه بأن ذلك الضابط التركي قد سافر إلى القاهرة، وأقام فيها أياما، ثم عاد ومعه سيدة تركية جميلة.

وأصبحت هذا البيت المترف مستقرا للحزن والبؤس والشقاء، صار الآن جحيما. وأحبّ أبوه تلك السيدة وكره أمّه. وأخيرا صارت الأم في حجرتها لا تخرج منها ولا تترك فراشها. وفي يوم أتى الخبر أنها فارقت الحياة. وبعد هذا استقبل الأب معزين كعادتهم، وفي اليوم الثاني خرجت امرأة شابه من الدار وتتوسط جمع الناس هادئة مطمئنة. وارتفعت صوتها وقالت: "من ظن منكم أنه أقبل للتعزية والمجاملة فليغير ذات نفسه ودخيلة ضميره. فليس هذا حفل عزاء وإنما هو حفل فرح وابتهاج. إن هذا الرجل الذي تعزونه قد قتل امرأته، وابتهج بموتها"[11].

ثم لم تدخل في البيت وذهبت إلى القاهرة، وهي ابنة تلك المرأة. و اضطر الضابط أن يرتحل من بيته. وبعد ذلك لم يسمع الكاتب خبرهم. وذات يوم وصل محمود إلى "الصبي". و كانا يجتمعان في حجرة الصبي المتواضعة. ولم يدعه محمود إلى بيته. ولم

[11] المعذبون في الأرض د/طه حسين 85

يسأل الصبي عنه. واضطر محمود أن يدعوه إلى بيته، وبيته بيت متواضع حقير و حجرته بائسة قد ألقى عليها حصير بال. وفي تلك الليل فهم الصبي مصدر هذا الحياء الذي منعه أن يتحدث إليه من أمر أسرته [12]. وأخيرا أن حمى التيفوئيد قد أسلمته إلى الموت أثناء الصيف.

[12] المعذبون في الأرض د/طه حسين ص: 88